مقرّ القديسة مريم المصريّة المختصّ بالارمن واهدى كنيستهُ ذخيرةً ثمينة من ذخائر القديس غريغوريوس المنوّر ولمّا عاد أتى معهُ بعدّة صور جميلة تزين حتى اليوم كنيسة الارمن في حلب كصورة القديس بطرس هامة الرسل وصورة مريم المجدليّة وقطع رأس يوحنّا المعمدان

وممّن حازوا الشهرة في زمن اسقفية المطران جبرائيل من كهنة حلب القس اندراوس شاشاتي الذي اتقن درس اللغة الارمنيّة في البندقيّة وخدم مدرسة بزمّار خدماً مشكورة وترجم كتاب اللاهوت الادبيّ للاب اطوين اليسوعيّ الى الارمنيّة وتفرّغ للتعليم وكان من جملة تلامذتهِ البطريرك غريغوريوس الثاني . وهو الذي نظّم مدرسة بزمار ورتّب قوانينها . ثم جاء حلب وطفق فانكفف على اعمال الخير من خدمة المطعونين وتعليم الشعب وكان يهتمّ خصوصاً بشرح التعليم المسيحي واوقف دارهُ لهذه الغاية . توفّي غنيّاً بالفضل والاحسان سنة ١٨١٤

وعُرف ايضاً في هذا الزمن القسّ ميخائيل جوهرجيّ الورتبيد الحلبيّ بكثرة معارفهِ وكان هذا درس في رومية ونال شهادة الملفنة في اللاهوت وكان ذكيّ الفؤاد متوقّد الذهن راسخ العلم يستشيرهُ البطاركة وغيرهم ويفوّضون اليهِ الامور المهمّة وقد قضى في بزمّار معظم حياتهِ وتوفّي في شيخوخة صالحة (لهُ بقيّة)

السعادة والعواطف

للكاتب الاديب فليكس فارس

لو كانت السعادة او ما يشبهها تتولد من الطوارئ الخارجية لحياة الانسان لمّا رأيت معدماً يتبسّم وموسراً يتأوه . لمّا رأيت وحيداً شريداً على الارض يستخرج من شروده سروراً ومن وحدتهِ حبوراً . ففي افكار الانسان مهما بلغ من الدراية وتقدير الاحكام تصوّرٌ خاص بكل فردٍ يطمح بهِ الى تكوين حالةٍ لذاتهِ بتكييف معيشتهِ وفهم الحوادث على ما يلائم اطباعهُ

ارى البعض ممّن فُسح لديهم مجال الارتزاق واتسعت امامهم موارد السعة يردّون ابصارهم عما امتلكوا مقتنعين في زوايا تصوّراتهم على قطعةٍ قانعة يحصرون بها

شوارد افكارهم لاستخراج البلاء وخلق الشقاء خلقةً . بينما ارى الالوف من مخلوقات الله الناطقة تدأب وراء الرزق دأب الحيوان الاعجم وعلى شفاههم ابتسامة الرضى وفي قلبهم فراغ لا يملأهُ الَّا الشعور باداء الواجب . فسمان يباين احدهما الآخر مباينةً كلية من جهة العواطف وتأثير الحوادث الخارجيَّة عليهما . فالاول يجعل كل فكر يطرأ عليه همًّا والثاني لا همَّ لهُ سوى الاشتغال للحصول على ذرائع المعيشة فان توصَّل اليها وقفت امانيه على محور راسخ لان الاحتياج الضروري يوقف الفكر عن التطوُّح الى بعيد المرام . رأيتُ رجلًا لديهِ من الاموال ما لو انفق ريعها فقط لقامت بأودهِ على احسن ما يرجو بنو الطبقة الموسرة من الالفة وهو يجد وراء الارباح ناظرًا الى المقبل يوجل حاسبًا لآخر ايامهِ الف حساب ورأيت آخر يشتغل كدودًا فيعود المساء الى عيالهِ بدُرَيهمات لا تكاد تُشبع اطفالهُ وهو طلق المحيَّا مبسوط النفس ينام بأمن وأجرة يومهِ لا تؤمنهُ الجوع في غدهِ اذا طرأ ما يحوِّل عرق جبينهِ الى دماء قلبهِ . حالةٌ يتعجَّب لها المتأمل اذا ما جرَّد نفسهُ عن الارض ونظر اليها كغريب يؤمُّ دارًا سحيقة . حالة يقف عندها الفكر ويتساءل عن هذا التفاوت الغريب بين شعور النقيضين بدنياهما فلا يجد لاول وهلة سببًا غير ما قال المتنبي فاصبح رأيًا عامًّا :

أفاضل الناس اغراضٌ لدى الزمنِ يخلو من الهمِّ أخلاهم من الفطنِ

مع ان هذا الرأي مناقض لنفسهِ يهدم عجزُهُ صدرَه لانهُ يضمُّ الحكمين المتباينين اوَّلهُ يجزم بحدوث الشقاء من الطوارئ الخارجيَّة واخره يعلن حلول التعاسة على المرء من مجرَّد كيانهِ فطنًا والامران مندفعان الى ما وراء المعقول بتجاوز الاعتدال . لانَّ التعاسة لا تنحصر بافاضل الناس فقط والشقاء سنَّة تكاد ان تعمَّ بني الانسان فكم من فاضل شقي ومن صعلوك اشقى ومن كريم موسر ومن لئيم اكثر يسارًا . اما قولهُ « يخلو من الهم اخلاهم من الفطن » فتلك كلمة شاعر متحمِّس كلمة فطن رُزيَ بالإحَن او تخيَّل انهُ تعيس فعكس القياس اذ حكم بانحصار البلاء بذوي الفطنة ليس الَّا مع انها تساعد المبتلى على درء الشقاء اذا كان مصدرهُ ماديًّا وتُوسع الصدر اذا كان المصاب ممَّا يعذِّب القلب فتقصر الماديات عن دفعهِ

ان العلل الخارجية ليست سببًا كافيًا لاحداث الشقاء ويكاد الطبع الخاص لكل فردٍ ان يكون المبدأ الاوَّل لايجاد حالة ذلك الفرد ايجادًا تصوريًّا فيلقى بحسب

عواطفهِ بعض السعادة او كل الشقاء . ويُطلَق هذا الحكم على الوسطين الادبيّ والماديّ معًا لان الموسر الطموع هو عندي اشدُّ فقرًا من الفقير القنوع . وصاحب النفوذ المتعجرف هو ذو نفس اشدّ مرارةً من الخامل اللئين العريكة

من الناس مَن يتوسَّم النجاح التام بكل عمل يباشرهُ . يخال لهُ ان تحويل التراب الى ذهب ممكن لاجتهادهِ فيسير في مشاريعهِ على غير هدًى لأن طبعهُ الهازئ بالمعقول يجعلهُ في املٍ مجدَّد وحبوط مستمرّ فهو يخال نفسهُ يومًا اغنى خلق الله واسعدهم حالًا ويومًا آخر يتأوَّه لسوء حظهِ . ولا عجب فمن كبت امانيهِ دون الحسوس المدرك يُدفَع كل ساعةٍ علوًا وحبوطًا . وما ذلك الّا نتيجة التصوّر متولدًا عن طبع خاص

من الناس من تصغر نفسهُ عن اقل اقدام يخال ان صغائر الامور تستوجب قوًى سامية فيجد قواه حابطة ازاء الاعمال كيفما قاسها ويلجأ الى الاعتماد على السوى . وهذا الطبع نقيض ذاك وكلاهما يتمسكان بطرفي نقيض ذاك يكون سائدًا بلا قوَّة وهذا يكون عبدًا بلا نفع

من الناس من يعيش ودماغهُ في قلق مستمرّ يحبُّ الخاصة عن مجرَّد ميلهِ للقلق الذي تحدثهُ فلا هناً لهُ عيش ما لم يكن امامهُ عبدٌ يصبّ النقمة عليهِ او خصم يحوّل عليه اختلاج اعصابهِ الهائجة

من الناس من يخال نفسهُ بالغًا ذروةَ التعقُّل يتداخل بكل عملٍ ولا ينجح بواحد منها ولكنهُ يعود مطبقًا نتائج الهبوط على مبادئ طبعهِ الخاص ويتصور انهُ نجح فيشمل لانتصارهِ وقد خدع ذاتهُ بذاتهِ

من الناس من يتخذ قاعدة اعمالهِ حكم الغير عليها فكلَّما جزم بأمرٍ او اتى عملًا يعمد الى الحكم بصوابهِ او خطائهِ على فكر مَن حولهُ

تلك طباعٌ تشعَّبت الى ما لا نهاية لهُ حتى يستحيل ان تجد في الأدمغة ما رسخ فيها متماثلًا تمامًا . فالحالة التي يطمح اليها عمرو ضامًّا بها شوارد آمالهِ حاسبًا بها سعادته يجدها زيدٌ مجلى الشقاوة ونهاية البلاء . ولهذا لا يمكن ان نرى على الارض وسطًا واحدًا نحكم بوجود السعادة بهِ

قال بعض الفلاسفة : إن خير حياة المرء هي المعيشة بالانفراد مع بعض الاخصّاء

في مزرعة تبعد عن متاعب الالفة وتضم كل احتياج العيش فائدة كافية وسرير ناعم وصحة صادقة . هي كل السعادة

ذلك حكمٌ فاسد لا إخالهُ ينطبق على الحقيقة فان الفيلسوف حكم على عموم الناس حكمهُ على طبعهِ الخاص كما حكم المتنبي بقولهِ « افاضل الناس اغراضٌ الخ » فكان الاثنان على ضلال . وانك لو اخذت رجلًا من ذوي الطبائع الطامعة الواسعة الاماني ووضعتهُ في مزرعة صديقنا الفيلسوف لصاح صيحة اليأس ونادى بالثبور حاسبًا نفسهُ في سجن المجرمين

وإن في تباين اطباع البشر واميالهم حكمةً سامية تدلّ على قدرة الخالق عزَّ وجلَّ حيث اراد قيام الالفة وحصرها بصورة المركّب لئلّا تتحوّل بالتماثل الى صورة البسيط فتضمحلّ . لو كان كل انسان يجد السعادة بالوحدة لاصبحت الارض كلها مغاور والانسان يلجأ اليها كالحيوان . او كان كل انسان يجد الراحة بالالفة لرأيت الارض قاحلةً دون عامل بها ووجدت المدن تغصّ بافراد الانسانية .كاوكار النمل . لو تماثلت مطامع البشر وتحولت عواطفهم الى نقطةٍ واحدة لرأيت الارض تنقلبُ انقلابًا ولا يلبث ان يسود عليها ظلام العدم

لا شك اذًا ان سعادة المرء ترتبط ارتباطًا قويًا بعبادتهِ واخلاقهِ الطبيعيَّة والمكتسبة فيندر بل يستحيل ان نجد رجلًا ألف الحرية المطلقة ولذَّ لهُ التقيُّد باي حال من الاحوال كما يستحيل أن ترى من تعوَّد الاستعباد ألا وهو يحنُّ الى سجنهِ اذا تهدَّم ويتوق الى قيودهِ اذا تكسَّرت . قيل انَّ رجلًا حُكم عليهِ بالسجن المؤبد وبعد ان بقي فيهِ ثلاثين سنة عُفي عنهُ فخرج الى نور الحياة فما لبث ان اتعبت عواطفه حركة الدنيا واسقمت عينيهُ اشعة الشمس . فكان كل يوم يقصد سجنهُ المظلم قاضيًا فيهِ الساعات الطوال حاملًا قيودهُ عن طواعية واختيار لانهُ ألف الحياة في قبر خرج منهُ بعد ان ولَّد العذاب فيهِ عواطف جديدةً وتأثراتٍ محدثة

ان القسم الاعظم من الناس يتصوَّر السعادة محصورة بالسيادة ونفوذ الكلمة مع أن التاريخ ينقل لنا اخبارًا عديدة عن عظام الدنيا ممَّن كانوا يتأوهون تعبًا من مجد السيادة وعظمة النفوذ . ومن منَّا لم يسمع بقول البدوية المشهور :

ولبس عباءةٍ وتقرُّ عيني احبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ

وبيتٌ تضربُ الارياح فيهِ احبّ اليَّ من قصرٍ منيفِ

ليست السعة والثروة موردًا للسعادة بل هي اغلب الاحيان تكون مولدةً للشقاء فتجعل صاحبها معرَّضًا للفقدان لمجرد الامتلاك فالكوخ الحقير لا يتزعزع امَّا شاهقات الابنية فيُخشى عليها من العواصف الثائرات

تلك هي حالة المرء من حيث عواطفهِ وقوانن الوسط الذي يحتاطه فهو في حرب مستمرَّة يناضل للوصول الى امانيهِ ولم تخلُ نفسٌ من أمنية حتى تسارعها المنية . لان افكار الانسان على ما ارى تشبه سلسلةً دقيقة الرأس ضخمة الطرف تتدرَّج عليها الاماني من صغير الى كبير وكلُّ حيٍّ مشابه اخاه من هذه الحيثيَّة فالرجل الحامل وقرًا ثقيلًا على كاهلهِ لا يفتكر الَّا بالوصول الى حيث يرمي حمله فاذا ما بلغ امنيتهُ وجد بفكرهِ امنيةً اخرى اذا ما قضاها اسفرت عن غيرها الى ما لا نهاية لهُ ما دام النَّفَس يعلن الحياة

وليس الفراق بين الناس من وجه اتصال امانيهم بل الفرق كل الفرق بكيفيَّة اشتغالهم للتوصل الى الاماني وبكيفيَّة تصورهم للنجاح وقبوله على اختلاف درجاته . فمنهم من يبلغ نصف ما يرجو فيقنع من نفسهِ ليس لانهُ ينسب اليها العجز بل لانهُ تصوَّر وصولهُ الى ابعد ما يرمي . ومنهم من يصل الى ذروة العمل حيث لا زيادة لمستزيد فيخال لهُ أنَّ السحاب جبالٌ يريد الارتقاء عليها

ذلك اذا اعترضتهُ المصاعب ازبد وارغى ونادى بالثبور وهذا يسير على مهلٍ باعمالهِ يتأنى خائفًا من العقبات حتى اذا تعرَّض احد لمشاريعهِ صبر عليها ولم تفتهُ قوة القلب . هذا ينظر الى اصغر عقبةٍ فيخالها طودًا يصدّه عن التوصل وذاك يخال المصاعب هباء فيقتحمها دون ان يشعر لها من الدفاع بشيء . فمن هذه الاختلافات بالاطباع أوجدت اسماء الشجاعة والجبانة . القناعة والطمع الى آخر ما هنالك من الصفات وما هي الَّا اطباعٌ تتولَّد من الاهواء الخاصَّة بكل فردٍ وما تلك الاهواء الَّا بنات النفس مبعث كل تطلُّب ولهذا قد قيل :

واذا كانت النفوسُ كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

ولا يقول عاقل :

واذا كانت العقولُ كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

لان النفس والمقصود بها العواطف هنا هي وحدها مولدة المطامع يعظم الشقاء عندها بقدر عظمتها اما العقل فهو الوازع القدير الذي يزن كل امر ويفهم الحال على ما هي قابلًا بالظروف كيفما اتت فلا يسكر لنجاح ولا يبكي ليأس يحني رأسهُ امام عاصفات الدهر ويبتسم لاتهُ يلتفت الى ما فوق فيرى ما لا يراهُ كبير الاماني يرى الابدية والخلود يرى لها جبّارًا يهزأ بالتكبرين ويفتح ذراعيهِ لمن لا يأسف على مال ولا يبكي على عظمة ومجد . هذا هو السعيد الذي يجد السعادة قدر ما سمح الله بها على الارض لأن عواطفهُ البشرية قد تلاشت وقام مقامها عواطف اسمى واشرف فهو اذ يرى الذهب والالماس لا يحنق ولا يحسد بل يلتفت الى المقابر فترتفع نفسهُ ويتنهد . .

لا سعادة مطلقة على الارض لأن الانسان ما زال مرتبطًا بالجسد يحتاج من كسرة الخبز حتى ثوب الارجوان فهو في قلق مستمر واشتغال دائم وبسبب ذلك لا يمكن لهُ أن يشعر بالسعادة لانها من خصائص الانفس المجرّدة وبما ان هذه الحالة السامية قد حصرها الخالق بالابدية فلا بد من وجود نقيضها على الارض وذلك النقيض هو التعاسة . التعاسة لا غير هي نصيب بني الحياة وتلك هديّة آدم لنسلهِ منذ خرج من الجنّة باكيًا فامتزج تراب الارض باول قطرة عرق واول دمعة

لكنَّ ذلك الشقاء الموروث الذي ترلت جراثيمهُ متأصلةً في كل قلب مع احتياج الجنس للجنس واحتياج الجنسين للارض هو قابلٌ للتكييف ومعرض للزيادة والنقصان . حسبما تقتضيهِ قابلية العواطف وعظمة النفس وصغر العقل ذلك الشقاء يزيد فيمن كبرت امانيهِ وينقص حتى يكاد يتلاشى لدى مَن اتسع ادراكهُ الى الدرجة القصوى اي الى معرفة الله والشعور بالحقيقة شعورًا يعود الى الكمال

ذلك الشقاء الذي انزلهُ الله على الانسان يتناقص كلما اقترب الانسان من الله

وتلك حالة قلّ من وُجد بها من بني الحياة وتكاد ان تكون شذوذًا لقلة من نرى في كنفها . حالة لو جعلها المرء مطمحًا لابصارهِ بلغ منها مبلغًا يخفف بلواه اذا لم يصل الى الحجّة حيث لا حسد ولا نار الطمع تتأكل الاحشاء

ولكن مَن من الناس يتمكن من الغلبة على طبعهِ اذا كان مفطورًا على التطوّح وعدم الاقتناع اذا كان قد تعوّد الحماقة والطيش وأُلف العتوّ والاعتزاز بالنفس اذا كان قد سرى على نهج الكبرياء منذ نعومة اظفارهِ

مَن من الناس اذا لبس الارجوان وحكم الدهرُ عليهِ بالفاقة يلبس العباءة دون أن يلتفت الى ما وراءهُ ويبكي

مَن منّا اذا طُبع على حبّ التأمر والسيادة لا يجد ذاتهُ اتمس خلق الله اذا جُبر على اطاعة اوامر السوى

مَن منا اذا تعوّد الخروج في يوم معيّن للنزهة وحكمت الظروف عليهِ بالانقطاع عنها يقبل حكم الدهر دون أن يلتفت الى مكان نزهتهِ ويتأوه . هذا هو الانسان وتلك اطواره ومع ذلك فهو يجدُ دائمًا وراء السعادة وقد حمل بنفسهِ كل ما يبعد عنهُ الارتياح وما دام الانسان ابن العادة وعواطفهُ تنطبع انطباعًا على ما تعوّد فلا يرجونَّ لشقاوتهِ تخفيفًا ما لم يتكفل التهذيب بغرس المبادئ السامية في قلوب الاطفال لأوّل وهلة تنفتح بها قلوبهم لاهواء الحياة . قل للذي يحتشد الاموال ويشيد الابنية ارثًا لبنيهِ وهو يحسبُ انها السعادة لمن يحبّ: « رويدك فما انت الّا واهمٌ بما تصنع حوّل بعض قواك الذاهبة جزافًا الى مطلب هو اشدّ لزومًا لأمانيك . لاحظ حركة العواطف في قلب بنيك وهم في غضاضة العمر . واجتهد لتُحوّل ما كان منها مصدر الشقاء الى عواطف ألطف واسمى الى مبادئ راسخة شريفة معقولة يمرُّ عليها البلاء فيلمسها دون أن يتخذ منها مولدًا ومقرًّا »

قُل للأب الّا يظهر الحماقة امام بنيهِ لئلا يتعوّدوا الفظاظة . قُل لهُ الّا يدفع نفسهُ لليأس امامهم لئلا تصغر عقولهم وتتسع امانيهم قُل للأمّ أن تكون صورة حكيمة عادلة . قل لها أن تسكن اعصابها وتحوّل احكامها مكان التأثر الى موضع التعقل لئلا تؤثر حالها في بنيها فيصبح عقلهم في اعصابهم وشعورهم في حواسهم . فينشأ الابناء على حالة تتعبهم حتى القبر حالة تولّد الشقاء ولادة حتى في شاهقات القصور وبين زواخر الاموال

قُل لمديري المدارس ومعلميها : تبصّروا بكيفيّة تربيتكم لرجال الغد . علموهم التروّي والثبات كي يأمنوا العجلة والتقلب وما يولّدان من المصاعب واستمرار الكفاح في هذه الحياة على غير نظام . علموهم هذا البيت الملوّ حكمةً :

وانما رجل الدنيا واوحدها من لا يعوّل في الدنيا على احدِ

فانكم ان غرستم بأفئدتهم هذا المبدأ السامي تجاوزهم بأمن من توليد اليأس لذاتهم بتكرار تروح الامل وحبوطه

عودوهم على التقشف المعتدل وشظف العيش المحتمل حتى اذا دفعتهم الاقدار الى حضيض الفقر يجدونهُ رحباً وقد مرّوا عليهِ من قبل

اذا وجدتم باحدٍ ممّن ارتمتم عليهم ميلاً قوياً لعمل سام مجرّد عن مطامع المادّة فلا تماكسوا ميلهُ لأن هذا الميل خُلق خلقةً بهِ بل ساعدوهُ ما استطعتم لأن من الناس من يجب ان يكون نحّاتاً مصوراً او كاتباً بحالة الفقر فيعيش سعيداً من ان يكون تاجراً او حاكماً غنياً فيعيش تعيساً

لا تخنقوا الصوت الخارج من حركة العقل بل لاشوا تلك الاهواء الخفية التي تتولّد من العواطف . والعقل حرٌّ لا يتكيّف اذا رسخت فيهِ الموهبة فلا تخافوا من ثبوتهِ شقاء على حياة المرء ولكن الحذر كل الحذر من تلك القوّة الكامنة في الاهواء لاشوها قبل ان يمتدّ شرارها الى العقل فيذريهِ رماداً ويقوم ساندًا مقامهُ . وهنالك الويل والبلاء

حوّلوا بعض قواكم التي تبذلونها في سبيل التعليم الى تهذيب الشعائر وترقية الوجدان فان العلم المجرّد لربما يجعل المرء غنياً ولكن يصيّرهُ تعيساً . اما التهذيب فيعدُّ للحياة رجالاً اقل سعةً ويساراً ولكنهم يكونون اشدَّ همة لدى المصائب واقل تأثراً من النكبات . وانت ايها التعيس غنياً كنت ام فقيراً انت ايها الساثر في مهامه الحياة وقد اثقل الدهر عليك فساعدتهُ بتصورك حتى لامس جبينك الارض ارفع ذلك الرأس الساقط وانظر الى ما فوق . . . كسرة خبز تشبعك ونهلةُ ماء ترويك . اذا عجزت ان تكون سيّداً فكن مسوداً وارفع تلك الاماني البعيدة المرام عن فكرك لانها لو تملكت بك لقامت مقام عقلك وجعلتك ملازم الشقاء . ولو صرت حاكماً عظيماً

كثيراً ما رأيت على الارض مستطيلاً مبسوط النفس ومثرياً يتأوه . وقد بسطت لك ما اوحت الحقيقة اليَّ من حكم العواطف ومصادر البلاء فتأمل . واختر لنفسك ما يحلو . . .